

عُمان كما رآها الرحالة الأمريكي أ. لوكر

دراسة للجزء الخاص بعُمان في كتاب
«مع الهلال والنجم، رحلة من بومباي إلى
اسطنبول عبر الخليج العربي عام 1868م»

■ بدرية الشعبي

أصدرت هيئة أبوظبي للثقافة والتراث سنة 2011م - ضمن سلسلة مشروعها الرائع الذي أطلقت عليه «رواد المشرق العربي» - النسخة العربية من مذكرات الرحالة الأمريكي أ. لوكر، وحملت هذه النسخة عنوان: «مع الهلال والنجم، رحلة من بومباي إلى إسطنبول عبر الخليج العربي عام 1868م». وكان هذا الكتاب قد صدر سنة 1889م باللغة الإنجليزية، إصدار دار إتنا بولاية فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وحملت عنوان: «مع الهلال والنجم، الرواية الكاملة والأصلية لرحلة انتهت مؤخراً مع قافلة متجهة من بومباي إلى القسطنطينية تتناول وصفاً للبلاد والناس والمغامرات مع السكان عام 1868م».

قامت بترجمة الكتاب من الإنجليزية إلى العربية الفاضلة رنا صالح، وراجعته الدكتور أحمد إيبش، الذي أثنى الكتاب بتعليقاته الذكية، خاصة فيما يتعلق بالصيد البري، حيث إن الدكتور إيبش مولع به، حاله في ذلك حال صاحب الرحلة لوكر، والذي كان محباً للصيد، حيث كان لا يترك فرصة سانحة للصيد البري إلا حرص على استغلالها خير استغلال.

■ تحضير رسالة الدكتوراه بجامعة السلطان قابوس في تاريخ عُمان.



ضم الكتاب بين ثناياه 32 فصلاً، و 636 صفحة، كما اشتمل على عدد من الرسومات التوضيحية التي رسمها لوكر بنفسه، ومن بين هذه الرسومات رسمة توضح لوكر ورفيقه السنيور بييترو وثلاثة من حراس السيد ثويني بن سعيد، وهم يعرضون عليه سيفاً من السيوف القديمة الموجودة في مخزن الأسلحة الخاص بالسيد ثويني، واتخذت هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث من هذه الرسمة صورة لغلاف الكتاب.

لا يُعرف من التفاصيل عن مؤلف الكتاب أ. لوكر سوى أنه رحّالة أمريكي قام بعدد من الرحلات، وصدرت له غير هذا الكتاب ثلاثة كتب أخرى، وهي «رحلة إلى الهند»، وكتاب «في صحراء لورستان»، وكتاب «النخاسون العرب»، لم يُعطِ لوكر الكثير من المعلومات عن نفسه إلا ما يمكن استنباطه من خلال رحلته، والذي لا يشفي الغليل، والقارئ لرحلته يتبين له أن لوكر لم يكن مهتماً بالتجارة أو السياسة، وإنما هو محب للاستطلاع والاستكشاف، لديه الكثير من المعلومات كان قد قرأها عن الأماكن التي زارها. وبجانب حب لوكر للرحلات كان مولعاً بالصيد البري، فهو يمارس هوايته هذه على طول طريق رحلته من بومباي إلى اسطنبول. رافق لوكر في هذه الرحلة السنيور الإيطالي بييترو Signor Pietro الذي كلفه الإمبراطور الفرنسي لويس نابوليون الثالث أن يشتري له فحول الخيول العربية من نجد والعراق. التقى لوكر بالسنيور بييترو في الثالث من مارس 1866م، ساعة ركوبه السفينة بينانغ Penang، التي تحركت بهما من بومباي، وكان لوكر قد قضى فيها ثلاث سنوات. طلب السنيور من لوكر مرافقته ومساعدته فرحب لوكر بهذا الطلب، وأبدى استعداداً لمساعدة السنيور في إنجاز مهمته.

تميّز لوكر بأسلوبه الساخر والمشوق في آن واحد في وصف المغامرات التي تعرض لها خلال رحلته الطويلة، كما تميّز بحبه أن يجرب بنفسه وان يشاهد بأمر عينيه كل ما يلفت انتباهه أو أن يكون قد قرأ عنه مسبقاً، لكن هذا لا يعني أن كتابه قد خلا أحياناً من الأحكام المسبقة غير المنصفة والتي يطلقها فقط بناءً على مشاهداته، أو على قلقه من الفقراء أو البؤس

حيث كان معتقداً أنهم لن يستكفوا أن يستغلوه أو يسرقوا ما لديه من مال. كما لا يخلو كتابه أحياناً من عدم التقدير لبعض الأبنية المعمارية وتقدير أهميتها الدينية والحضارية.

سنحاول من خلال هذا البحث التركيز على كل ما كتبه لوكر عن عُمان من خلال كتابه «مع الهلال والنجم»، ومعرفة وجهة نظره حول المناطق التي زارها في عُمان، بعض هذه الأماكن لم ينزل إليها وإنما مرّت السفينة المقلّة له عليها مرور الكرام، وقام لوكر بوصفها وإعطاء فكرة عنها، مثل رأس

لا يُعرف من التفاصيل عن مؤلف الكتاب أ. لوكر سوى أنه رحالة أمريكي قام بعدد من الرحلات، وصدرت له ثلاثة كتب أخرى وهي: «رحلة إلى الهند»، و«في صحراء تورستان»، و«النجاسون العرب».

الحد، والغبرة وجزر الديمانيات، وشبه جزيرة مسندم، أما الأماكن التي نزلها فهي مسقط ومطرح، فوصفهما وصفاً سهياً ودقيقاً، وبطريقة مثيرة، تضج بالحركة وتجعلك تعيش اللحظة معه وتشعر كأنك برفقته في رحلته وترى الذي يراه، وتشعر بجماليات المكان وخاصة سوق مطرح، الذي أسهب في وصفه بطريقة رائعة.

لوكر في مسقط

وصلت السفينة التي أقلت الرحالة لوكر من بومباي متجهة إلى بغداد منطقة رأس الحد عند شروق شمس الثامن من مارس سنة 1866م. ويصف لوكر رأس الحد أحياناً بأنها منطقة قاحلة وعقيمة خالية من الحياة وأن ساحلها غير مأهول بالسكان، وجاء هذا الحكم من قبله؛ لأنه لم ينزل إلى شاطئ رأس الحد، بل وصف المكان من السفينة، وبعد ساعتين أو ثلاث من الإبحار وصلت السفينة إلى ميناء مطرح، ويذكر لوكر أن منظر الميناء والجبال المحيطة به كان يشكّل منظراً رائعاً وجميلاً، حيث وصفه بأنه «من أكثر المشاهد متعة في العالم».

ومن السفينة شاهد بيت العلم (قصر العلم حالياً)، ومبنى القنصلية الإنجليزية الذي يقع بالقرب من بيت العلم، ووصف مبنى القنصلية بأنه



مبنى مؤلف من طابقين، وفيه حديقة جميلة جداً، ثم وصف قلعتي الجلالى والميراني وقلعة مطرح، وذكر بأن الهدف من إنشاء هذه القلاع هو حماية المدينة، وأشاد بجمالية هذه المباني، وبقدرة الإنسان العُماني وإصراره الكبير في بناء هذه القلاع في جبال شاهقة شديدة الخشونة، وأعقب إشادته هذه بملاحظته أن هذه القلاع غير قادرة إطلاقاً على مواجهة المدفعية الحديثة، وأن ضربة واحدة من أحد المدافع الحديثة كفيلاً بتحطيم هذه المباني وتحويلها إلى ركام، وهنا واضح أن لوكر لم يحسن تقدير قوة وصمود تلك القلاع العُمانية الشاهقة التي صمدت أمام الكثير من الغزاة ومدفيعاتهم.

وبمجرد وصول السفينة بينانغ الميناء أنزلت مرساتها، واستقبلها عدد كبير من البلام، والبلم عبارة عن قارب صغير يبلغ طوله 20 قدماً وعرضه لا يتجاوز القدمين، عبارة عن جذع شجرة مجوف، له نهايات حادة، يركبه شخصان يبيعان الأسماك المجففة أو الفواكه للمسافرين في السفن الكبيرة، أو يعرضون عليهم نقلهم إلى شاطئ البحر.

ركب لوكر أحد هذه البلام إلى الشاطئ، وفي لحظة وصوله تفاجأ برائحة الأسماك التي تفوح في الأجواء وكيف أن الناس قد تعودوا عليها وأنسوها، ولم تعد بالنسبة لهم شيئاً غريباً، ويبدو أن لوكر هو أيضاً قد تعود عليها بعد وقت قصير، ولم يعد يجدها كريهة أو لا تطاق. وكثرة رؤوس الأسماك التي شاهدها لوكر ملقاة على الشاطئ دليل على نشاط حرفة الصيد وعلى عظم كمية الأسماك ودليل على نشاط حرفة أخرى هي تجفيف الأسماك لبيعها داخل عُمان أو تصديرها إلى خارج عُمان، كما أن في سوق مطرح محلات صغيرة لبيع الأسماك بالتجزئة، وهو ما سيذكره لوكر بعد ذلك حين يصل للسوق.

بدأ لوكر ورفيقه السنيور بييترو رحلتها سيراً على الأقدام، وتوجها إلى مسقط حيث تجولا بين دورها المبنية من الحجر على الطراز العربي، ولها سطح مستو، ويوجد بها عدد قليل من النوافذ، ثم وصلا إلى مقر السيد

ثويني بن سعيد، وهو عبارة عن مبنيين، الأول اتخذه السيد ثويني كمقر لحكمه، أما الثاني فكان مقر إقامة له ولعائلته، والمبنى به نوافذ تحفظ له خصوصيته، حيث إن النوافذ مزخرفة بتعريشات حديدية جميلة تضيف منظرًا جميلاً على المبنى وتسمح للهواء بالدخول والخروج، وفي الوقت نفسه تحفظ لسكان البيت حرمتهم، يحرس المبنيين عدد من الحراس، الذين كانوا يلعبون بالنرد، ويحمل كل واحد منهم بندقية وثلاثة مسدسات.

بعدها توجه الرحالة ورفيقه إلى مخزن الأسلحة وهو مبنى مربع الشكل تبلغ مساحته 200 قدم مربعة ويحرسه حارسان، وقد رحبا بلوكر والسنينور وقدا لهما بعض الأسلحة لمعاينتها، ويرى لوكر أن السبب وراء احترام الحارسين لهما هو مظهر السنينور بييترو؛ حيث كان يرتدي الطربوش القرمزي اللون، والملابس التركية، ويبدو الشيب على شعره، وصاحب هذه الهيئة يحظى باحترام العرب وكافة المسلمين، إلا أنه من المعروف أن للعمانيين خصلاً يشهد لهم بها القاصي والداني، منها احترام الضيف وإكرامه بغض النظر عن جنسه أو سنه وسواء أكان شعره أبيض أم اسود.

من أجمل ما كتبه لوكر عن
عمان وصفه الرائع لسوق
مطرح، وجاء وصفه يعج
بالحركة؛ نظراً لتنوع
الناس الذين يزورون
السوق أو يعملون فيه، من
حيث تنوع جنسياتهم
وتنوع ملابسهم ولغاتهم.

سوق مطرح يعجُّ بالحركة والتنوع الزاخر بالألوان

من أجمل ما كتبه لوكر عن عمان وصفه الرائع لسوق مطرح، وجاء وصفه يعج بالحركة؛ نظراً لتنوع الناس الذين يزورون السوق أو يعملون فيه، من حيث تنوع جنسياتهم وتنوع ملابسهم ولغاتهم. يصف لوكر سوق مطرح بأنه عبارة عن أكشاك مصفوفة على جانبي ممر ضيق لا يتسع لحصانين، وإنما عرض الممر يتسع لحصان واحد فقط، كما أن السوق محمي من أشعة الشمس حيث يغطي سقفه بالحصر، والسوق مليء بالزوار والمرتادين الذين يستمتعون بالتجول داخل السوق سواء أتوا للشراء أو لمجرد المشاهدة، حيث



يقول: «يُعجُّ هذا الطريق بالناس منذ لحظة شروق الشمس وحتى لحظة غروبها، يتناقشون ويضحكون ويصيحون، ويدفع بعضهم بعضاً».

بدأ لوكر زيارته لسوق مطرح من محلات الصاغة وكانوا منهمكين في عملهم، الذي أبدعوا فيه، وصنعوا أجمل القطع الذهبية وأنفسها، بعدها تأتي أكشاك بيع الأقمشة والتي كانت بأعداد كبيرة، وتبيع أنواعاً مختلفة من الأقمشة المجلوبة من جميع دول العالم. بعد أكشاك الأقمشة تأتي أكشاك البهرة الهنود الذين يبيعون منتجات متنوعة من الأقمشة المطرزة، والقطع الذهبية، والأحجار الكريمة، والمنحوتات اليدوية، والصناديق الصغيرة المصنوعة من خشب الصندل أو الأبنوس.

بعد الهنود البهرة يأتي كشك لشاب يهودي يبيع بضائع متنوعة، ومن بعده يأتي العُمانيون الذين يبيعون المنتجات الحرفية التي ترتبط باحتياجات الإنسان العُماني مثل قرابات المسدسات، وحقائب الطلقات، ومستلزمات تزيين الخيول العربية، كما يبيعون أنواعاً عدة من السيوف العربية والتركية والفارسية، بعد البهرة يأتي صانعو الأدوات النحاسية، والذين كانوا يطرُقون النحاس بشكل متواصل يصدر عنه صوت مزعج يصم الأذان، بعدهم الحدادون، ثم صانعو الأدوات الجلدية.

وفي جانب آخر من السوق يوجد الطباخون الذين يعدون حساء مكوناً من اللحم مع الخضار، وبجانب الطباخين صانعو الحلوى، الذين يبيعون الحلوى العُمانية التي ضربت شهرتها الأفاق، والتي كانت تصدر إلى جميع دول العالم، وكان كل البحارة والمسافرين يحرصون على المرور على سوق مطرح لشراء كمية منها هدية لأولادهم وجيرانهم وأصدقائهم، ولم يكن سمةً هذا الأمر خاصاً بالمسافرين العرب بل كان لجميع المسافرين من جميع الجنسيات، وحتى الأوروبيون كانوا يحرصون على شرائها ليهدها أحبابهم حين يعودون إلى أوطانهم كهدية ثمينة وقيمة، واشترى لوكر الحلوى المسقطية؛ ليهديها أصدقاءه في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن لم يشتريها من مسقط وإنما من مدينة بيلان على خليج الاسكندرون، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على النشاط الملاحي الواسع لعرب عُمان وشبه الجزيرة العربية، أوصل منتجاتهم

إلى أماكن شتى من العالم، كما يدل أيضاً على جودة الحلوى المسقطية وكثرة الإقبال على شرائها، ولقد أحب لوكر الحلوى العُمانية وأعجب بها حيث كتب «إن هذا النوع من الطعام الذي يُطلق عليه السكان اسم الحلوى له مذاق طيب جداً وهو مغدٌ جداً، وأعتقد أنه طعام صحي أيضاً».

ومن بعد بائعي الحلوى يأتي الجزارون الذين يبيعون لحم الماعز والإبل اللذين يتوفران بكثرة، بخلاف لحم الغنم والبقر، حيث يذكر أن لحم الغنم والعجل كان نادراً ما يباع في سوق مطرح، وأن أفضل اللحوم عند العرب لحم الحوار أي صغير الجمل الذي لم يتجاوز عاماً، وأن هذا اللحم هو أفضل ما يقدم

**أحب لوكر الحلوى
العُمانية وأعجب بها حيث
كتب «إن هذا النوع من
الطعام الذي يُطلق عليه
السكان اسم الحلوى له
مذاق طيب جداً وهو مغدٌ
جداً، وأعتقد أنه طعام
صحي أيضاً».**

للضيف. بعد الجزارين يأتي بائعو السمك، الذي يُعدُّ الطعام المفضل لأكثر سكان مسقط؛ نظراً لتوفره ورخص ثمنه، وكانت تصدر كميات كبيرة منه سواء أكان طازجاً أو مجففاً إلى كل من بلاد فارس والهند وجزر الملايو وشرق إفريقيا وجزر موريشيوس. يأتي بعد بائعي السمك بائعو الخضار والفواكه، بالرغم من عدم تنوع الفواكه والخضراوات المعروضة بسبب صعوبة الزراعة في مطرح ومسقط، وقلة المياه العذبة، مما حتم قلة المعروض وعدم تنوعه.

لم يكتف لوكر بوصف السوق بل وصف أيضاً الباعة والمرتادين، فمن الباعة وصف البائع الفارسي، حيث وصف قبعته وعباءته، كما وصف طريقته في سحب أنفاس من النارجيلة ذات التبغ الأصفهاني. وبجانب هذا البائع بائع تركي بدين يرتدي الملابس التركية الزاهية الألوان وبييع الأقمشة المتنوعة، ومن الأجناس التي تباع في السوق هناك اليهود، هذا عدا البانيان والعرب سواء أكانوا عُمانيين أم من دول عربية أخرى.

سوق مطرح متنوع ومتعدد الجنسيات والبضائع، منظم بشكلٍ يسمح لكل بضاعة من صنف واحد أن تعرض في أكشاكٍ متقاربة، وبالرغم من ازدحام السوق بالناس من المشتريين والجائلين من مختلف جنسيات العالم إلا أنه يسوده الاحترام، وتقدير الناس لبعضهم لبعض.



لوكر يتجول بين أبنية مسقط ومطرح

يذكر لوكر أن مسقط هي عاصمة ولاية مسقط، ويحيط بها سور من ثلاث جهات تهدمت أجزاء منه، وبه ثلاث بوابات ضيقة جداً ومظلمة مصنوعة من الخشب المدعم بالحزم الحديد، ويبلغ تعداد سكان مسقط بحسب تقديرات لوكر من ستين إلى سبعين ألف نسمة تسعة أعشارهم مسلمون، والبقية عبارة عن التجار المقيمين في مسقط بشكل مؤقت منهم المسلم ومنهم غير المسلم.

أما مباني مسقط فهي تتكون من طابق واحد ذي نوافذ صغيرة محمية بالحديد، ويسكن الأثرياء بيوتاً مكونة من طابقين، أما على أطراف المدينة فالبيوت عبارة عن عُرشٍ مصنوعة من جريد النخيل. بيوت مسقط ذات أسطح مستوية شأنها في ذلك شأن البيوت العربية، ويستخدم السطح للنوم نظراً لارتفاع درجات الحرارة والرطوبة، حيث وصلت درجة الحرارة في الظل في الفترة التي زارها لوكر إلى 44 درجة مئوية.

أما مساجد مسقط فيذكر لوكر أنها كانت في حدود أربعة أو خمسة مساجد، وهي مربعة الشكل، بها مآذن وقباب تميّزها عن غيرها من المباني، وكانت المساجد سهلة التصاميم تكاد لا تميز عن غيرها من المباني إلا بمآذنها وقبابها، والتي كانت هي أيضاً غير معقدة في شكلها وألوانها.

يعتمد سكان مسقط على مياه الآبار في الشرب، يتم رفع الماء منها بواسطة حيوانات تسحب حبالاً في نهايتها دلاء مصنوعة من جلود الحيوانات.

لوكر يغادر مسقط

حين انتهت رحلة لوكر في مسقط رجع إلى الميناء وركب البلم، ومن ثمّ عاد إلى سفينته، وأثناء عودته وصف حطام سفينة أوروبية محملة بالتمور احترقت في ميناء مطرح، وبقي منها أجزاء ظلت راسية على الشاطئ. وحين وصل لوكر إلى سفينته بينانغ سمع من طاقم سفينته بمقتل السيد ثويني، ويذكر أن من قتل السيد ثويني هو أحد أخوته إلا أنه من المعروف لدى

الجميع أن من قتله هو ابنه السيد سالم. وبعد وصول خير مقتل السيد ثويني تحركت السفينة بينانغ وخرجت من الميناء.

لوكر يصف الغبرة

بعد خروج السفينة من ميناء مطرح توجهت بهم إلى الغبرة، ولم ترس السفينة في الغبرة بل مرّت عليها فقط، ويصف لوكر الغبرة بأنها ميناء صغير وجميل يبعد أربعة أميال إلى الشمال من مسقط، اتخذ منها السيد ثويني مقرّاً لأسطولته البحري، الذي يبدو أنه حين وصول لوكر لم يكن يرسو فيه منه سوى سفينتين شرعيتين صغيرتين وخمسة أو ستة مراكب شرعية ذات صاريين، حيث يبدو أن السيد ثويني كان قد حرك بعض السفن إلى صحار؛ ليستعين بها في حربه ضد السعوديين.

أما مباني مسقط فهي تتكون من طابق واحد ذي نوافذ صغيرة محمية بالحديد، ويسكن الأثرياء بيوتاً مكونة من طابقين، أما على أطراف المدينة فالببوت عبارة عن عُرشٍ مصنوعة من جريد النخيل.

لوكر يصل شبة جزيرة مسندم

في صباح اليوم التالي وصلت بيانغ إلى شبة جزيرة مسندم وشاهد بها محطة التلفراف الهندي - الأوروبي، ويعمل بمكتب التلفراف هذا أربعة من الإنجليز في مبنى حجري ضخّم، ويصف لوكر شبة جزيرة مسندم بأنها منطقة جرداء تكاد تخلو من الحياة النباتية، وتعتمد في مياه الشرب على بندر عباس، التي يجلب منها الماء ومستلزمات الحياة الأخرى إلى شبة جزيرة مسندم.

وهكذا انتهت رحلة لوكر إلى عُمان والتي لم تتجاوز اليوم الواحد تقريباً، إلا أنها مفعمة بالوصف لكل ما وقعت عليه عيناه، فلقد تميز بأنه يصف وبدقة كل ما يمرّ عليه، ولم يكن هذا أسلوبه أثناء زيارته القصيرة لعُمان فقط، بل تميّزت رحلته كلها بهذا الوصف المليء بالحركة والنشاط وبشيءٍ من السخرية والتهمك خاصة عندما يصف البدو أو الفقراء في جميع المناطق التي مرّ بها.



وتأتي أهمية زيارة لوكر لعمان من أنه نجح في وصف مسقط ومطرح على وجه الخصوص وقدم وصفاً دقيقاً لهما، ويمكن الرجوع إلى رحلته في دراسة الجانب الحضاري والاجتماعي والاقتصادي لعمان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، ودراسة علاقة عمان بدول الجوار أو بدول العالم.

إن وصف لوكر الدقيق يشكّل تحدياً للفنانين التشكيليين في عمان بأن يرسموا لوحات ذات موضوعات عدة بناء على وصفه، وأنا متأكدة من أن هذه اللوحات ستشكل معرضاً جميلاً ورائعاً يعرض جوانب مختلفة من الحياة، من تنوع السكان وتنوع أنشطتهم الاقتصادية، ومن الطبيعة والتضاريس العمانية الرائعة الجمال. كما سيكون هذا المعرض فرصة ذهبية لتعريف العالم بعمان خلال القرن التاسع عشر من خلال عرض اللوحات في المعارض الدولية، وخاصة معارض اكسبو؛ ليصل لأكبر عدد من الجمهور المحب للتراث العماني الأصيل.